

تفسير البحر المحيط

@ 65 @ ضمير ا تعالى فلو فسرته باعبدوا ا ربي وربكم لم يستقم لأن ا لا يقول اعبدوا ا ربي وربكم ، وإن جعلتها موصولة بالفعل لم يخلُ من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به وكلاهما غير مستقيم ، لأن البديل هو الذي يقوم مقام المبدل منه ، ولا يقال ما قلت لهم إلا أن اعبدوا ا بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنك لو أقمت { أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ } لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته . .

(فإن قلت) : فكيف تصنع ؟ (قلت) : يحمل فعل القول على معناه لأن معنى { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرَ تَذَيَّ بِهِ } ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره ب { أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } ويجوز أن تكون موصولة عطفاً على بيان الهاء لا بدلاً ؛ انتهى ، وفيه بعض تلخيص . أما قوله : وأما فعل الأمر إلى آخر المنع ، وقوله لأن ا تعالى لا يقول اعبدوا ا ربي وربكم فإنما لم يستقم لأنه جعل الجملة وما بعدها مضمومة إلى فعل الأمر ، ويستقيم أن يكون فعل الأمر مفسراً بقوله { اَعْبُدُوا اللَّهَ } ويكون ربي وربكم من كلام عيسى على إضمار أعني أي أعني ربكم وربكم لا على الصفة التي فهمها الزمخشري ، فلم يستقيم ذلك عنده . وأما قوله : لأن العبادة لا تقال فصحيح لكن ذلك يصحّ على حذف مضاف ، أي : ما قلت لهم إلا القول الذي أمرتني به قول عبادة ا ، أي القول المتضمن عبادة ا . وأما قوله لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته فلا يلزم في كل بدل أن يحلّ محل المبدل منه ، ألا ترى إلى تجويز النحويين : زيد مررت به أبي عبد ا ، ولو قلت زيد مررت بأبي عبد ا لم يجر ذلك عندهم إلا على رأي الأخفش . وأما قوله عطفاً على بيان الهاء ، فهذا فيه بعد لأن عطف البيان أكثره بالجوامد الأعلام ، وما اختاره الزمخشري وجوّزه غيره من كون أن مفسرة لا يصح لأنها جاءت بعد إلا ، وكل ما كان بعد إلا المستثنى بها فلا بدّ أن يكون له موضع من الإعراب وأن التفسيرية لا موضع لها من الإعراب ، وانظر إلى ما تضمنت محاوراة عيسى وجوابه مع ا تعالى لما قرع سمعه ما لا يمكن أن يكون نزه ا تعالى وبرأه من السوء ، ومن أن يكون معه شريك ثم أخبر عن نفسه أنه لا يمكن أن يقول ما ليس له بحق ، فأتى بنفي لفظ عام ، وهو لفظ ما المندرج تحته كل قول ليس بحق حتى هذا القول المعين ، ثم تبرأ تبرؤاً ثالثاً وهو إحالة ذلك على علمه تعالى وتفويض ذلك إليه ، وعيسى يعلم أنه ما قاله ، ثم لما أحال على العلم أثبت علم ا به ونفى علمه بما هو فيه إشارة إلى أنه لا يمكن أن يهجر ذلك في خاطري فضلاً عن أن أفوه به وأقوله ،

فصار مجموع ذلك نفي هذا القول ، ونفي أن يهجز في النفس ، ثم علل ذلك بأنه تعالى مستأثر بعلم الغيب ، ثم لما نزه الله تعالى وانتفى عنه قول ذلك وأن يخطر ذلك في نفسه انتقل إلى ما قاله لهم فأتى به محصوراً بإلا معذوقاً بأنه هو الذي أمره الله أن يبلغهم عنه . . { وَكَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِّمَّا دُمُّتُمْ فِيهِمْ } أي رقيباً كالشاهد على المشهود عليه ، أمنعهم من قول ذلك وأن يتدينوا به ، وأتى بصيغة فعيل للمبالغة كثير الحفظ عليهم والملازمة لهم وما طرفية ودام تامّة أي ما بقيت فيهم ، أي شهيداً في الدنيا . . { فَلَمَّامٌ تَوَفَّيْتَنِي } قيل : هذا يدل على أنه توفاه وفاة الموت قبل أن يرفعه ، وليس بشيء لأن الأخبار تضافرت برفعه حياً ، وأنه في السماء حيّ وأنه ينزل ويقتل الدجال ، ومعنى { تَوَفَّيْتَنِي } قبضتني إليك بالرفع . وقال الحسن : الوفاة وفاة الموت ووفاة النوم ووفاة الرفع . .

وقال الزمخشري : { كَأَنْتُمْ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَهِيدٍ }